أنطونيو سالاس

هو

"الفلسطيني"

تعلّم اللغة العربية
واعتنق الإسلام
وتوغل في شبكات الإرهاب الدولي...

كتاب لمؤلف:
Diario de un skin **(يوميات حليق الرأس)**

المقدمة

بيضة اليوم خير من دجاجة الغد.

(مثل عربي)

في ١٧ أبريل/نيسان ٢٠٠٩ غادرتُ المسجد، مثل كل جُمعة خلال السنوات الأخيرة، مطمئن الروح ومعزز الإيمان... وغير مسلح. لم أرتح لفكرة الذهاب إلى المسجد ومعي المسدس. ولم يكن ذلك بسبب السجود والركوع الذي تتطلبه الصلاة فحسب، مما قد يؤدي إلى كشفه، ومع الأخذ بعين الاعتبار أنه منذ ١١مارس/آذار ٢٠٠٤ جميع المساجد الأوروبية تعج بمخبري وجواسيس الشرطة، فبالتالي لن تمر خمس دقائق إلا وقد القي القبض علي من جديد. بل لأنه في أعماق هويتي الإسلامية، التي حملتها على عاتقي كل هذه السنوات، كنتُ أعتقد أن إدخال السلاح إلى المسجد يعدّ عملا غير لائق بهذا المكان المقدس ولا بإخوتي المتواجدين به. وذلك على الرغم مما يقوله مرشديّ في الكفاح المسلح. وهكذا إذن في كل يوم جمعة، عند الحضور إلى الصلاة، كنت أترك السلاح في السيارة أو في الفندق أو في صندوقي الخاص وأسحبه عند الخروج من الحرم. أثناء تدريبي في فنزويلا، رسّخ زملائي بالقوات شبه العسكرية في ذهني روتين الأسلحة، التي –وفقا لرأيهم– تعدّ أمرا ضروريا لكل ثوري ولكل شهيد من شهداء الإسلام. وخاصةً في تلك الظروف الصعبة التي كنا نعيشها في مثل تلك الأيام، حيث أنه كان من المفترض أن أصطحب مرة أخرى رفيقا لبنانيا، وهو الرئيس السابق لمخابرات حركة حزب الله، الذي كان في زيارة إلى اسبانيا آنذاك...

كنت تلك الجمعة بمدريد، في انتظار المسئول بحزب الله، وكان قد وقع اختياري على مسجد أبي بكر، في رقم ٧ من شارع اناستاسيو هيريرو، باعتباره أكثر بعدا عن الأنظار من المسجد الشهير بطريق M-٣٠ رغم أن هذا الأخير قد صلى داخل جدرانه، بين مئات المسلمين الحقيقيين الذين يملئونه يوميا، بعض الشخصيات الأكثر شرا ورمزية في تاريخ الإرهاب الدولي. ذهبت عند الخروج، وبعد أن استعدت المسدس، إلى مكتب البريد بشارع ماريانو فرنانديز القريب من المكان. كان عليّ انجاز مهمة معينة قبل أن أجتمع مع أخي اللبناني لحمايته.

قام أخ آخر، وهو القائد البوليفي إدواردو روزا فلوريس، المقاتل المخضرم في حرب البلقان وزعيم الجماعة الإسلامية بالمجر، بإعطائي أوامر محددة للغاية وهي إرسال حُزمة إلى أخته سيلفيا في بوليفيا، وأنا كنت أطيع الأوامر التي أكلف بها بصفة دائمة، وخاصةً إذا جاءت من شخص مثل روزا.

لذلك، قمت بعد الصلاة بإرسال الحزمة إلى العنوان الذي أشار إليه روزا في آخر بريد إلكتروني أرسله إلي في ذلك الأسبوع.

بعد أن خرجت من مكتب البريد، لم أمش سوا بضعة أمتار ثم قطعت الشارع لأصل إلى مقهى للانترنت كنت أعرفه في ذلك الحي. وبصفتي رجل "فلسطيني–فنزويلي"، لم يكن وجودي في ذلك المكان الذي يتردد عليه المهاجرون يثير انتباه أحد، على الرغم من أنني قد أمضي ثماني أو عشر ساعات أمام الكمبيوتر. وفي تلك العشية بالذات كان في انتظاري عمل كثير. وكان "أبي الروحي"، اليتش راميريز سانشيز المعروف باسم كارلوس ابن آوى، قد أرسل إلي عدة نصوص وصور لأحملها على موقعه الرسمي: www.ilichramirez.blogspot.com. وكان ابن آوى يتصل بيّ على مدى عدة أشهر من سجنه في باريس ليعطيني تعليمات مرةً أو مرتين في الأسبوع على الأقل. كان تيودور درنوت، زعيم حزب الله بفنزويلا، الذي حُكم عليه بالسجن عشر سنوات بتهمة تورطه في زرع قنبلة بالسفارة الأميركية في كاركاس، والذي كنت أدير موقعه الخاص أنا أيضاً[1]، لا يزال له اتصال عبر الإنترنت من داخل زنزانته في المقر المركزي للاستخبارات الفنزويلية، بالمبنى الحلزوني المعروف باسم دي.اي.اس.اي.بي. (DISIP)[2]، إلا أن كارلوس لم يكن باستطاعته الولوج في شبكة الإنترنيت من سجنه الفرنسي حيث كان يقضي، ولا يزال، حكما بالسجن المؤبد بتهمة قتل أكثر من ثمانين شخصا، ولذا فإنه كان يرسل إلي عبر البريد كل النصوص والصور التي كان يرغب في إدراجها بموقعه الخاص على شبكة الإنترنت. أما أنا فكنت ألتزم حرفيا بتعليماتهما.

كان القائد اليتش راميريز مسرورا بعملي، كما ابلغني بذلك مرارا وتكرارا. خصوصا لأنني كنت قد حضرت قبل خمسة أشهر، نيابة عنه، اجتماعا عقد في السويد حتى يتمكن من المشاركة في هذا الاجتماع عبر هاتفي المحمول. هاتف كانت تتجسس عليه طوال كل ذلك الوقت أجهزة الاستخبارات الفرنسية. قبل ذلك بأيام معدودة، أخبرتُه، بفضل معارفي في قناة الجزيرة وفي مجموعة إسلامية متطرفة، بأنني قد حصلت أخيرا على نسخة من مقابلة فريدة أجريت مع الشيخ أسامة بن لادن بعد أحداث الـ١١ سبتمبر، لم تبث أبدا. وقيّمنا إمكانية نشر ذلك الفيديو على موقعه الخاص.

وبفضل ذلك الموقع تمكن من الاتصال بي أعضاء في المجموعات "الثورية" الرئيسية في العالم: منظمة "ايتا" وحزب الله والقوات المسلحة الثورية الكولومبية (FARC) وحماس وجيش التحرير الوطني (ELN)، إلخ.. إضافةً إلى أعضاء في حركة النازيين الجدد، مراجعين ومعاديين للصهيونية من المهتمين بالقضية الفلسطينية. وكان كل هذا قد حدث قبل أقل من شهرين من مثولي أمام القضاة، كشاهد محمي، في المحاكمة الكبرى ضد "هامرسكين اسبانيا" (Hammerskin España)، أحد منظمات

---

[1] *www.teocraciavenezuela.blogspot.com*

[2] دي.اي.اس.اي.بي. (DISIP): المدرية الفرعية العامة للاستخبارات والوقاية. تعرف حاليا بـــ SEBIN: الوكالة البوليفية للاستخبارات. يقع مركز الشرير ذو الشكل الحلزوني بمدينة كاركاس... "تسللت" أنا شخصيا إلى داخله مرتين.

النازيين الجدد التي توغلت في صفوفها لتأليف كتابي السابق "يوميات حليق الرأس" (*Diario de un skin*). والآن، ومن غير قصد، اضطررت إلى التسلل مرة ثانية داخل الحركة النازية، والتردد على نفس الأماكن والأشخاص التي كنت أتردد عليها خلال بحثي حول مجموعة حليقي الرؤوس النازية. ولكن في هذه المرة تحت هوية ناشط فلسطيني...

اتصلتْ بي أيضا عن طريق الموقع الرسمي لابن آوى، على وجه التحديد، شخصيات مثل إدواردو روزا، رفيق كارلوس خلال العمليات الأوروبية الأسطورية التي أنجزها اليتش راميريز في السبعينيات والثمانينيات. ومنذ ذلك الحين، وتبعا لأوامر ابن آوى، صرتُ وسيطا بينه وبين صديقه الحميم القديم في المجر.

جلست أمام الكمبيوتر على استعداد لقضاء عدة ساعات للرد على الرسائل الإلكترونية التي تلقاها كارلوس ابن آوى من مختلف أنحاء العالم، وكذا لتحديث موقعه الرسمي، إلا أنني اطلعت قبل ذلك على بريدي الإلكتروني الخاص. حينها انهار عليّ الكون...

منذ أن بدأت هذا التوغل، وبفضل إدواردو روزا إلى حد ما، تمكنت من إتقان التعامل مع الشبكات الاجتماعية مثل فيسبوك، ماي سبيس أو ميسنجير، لنسج شبكة دولية تضم أعضاء من مختلف الجماعات المسلحة. كما أنني كنت استخدم خدمة تنبيهات جوجل لمتابعة أعمال الإخوة والرفاق الأكثر شهرة ممن كنت أشاركهم حياتي منذ الـ١١ مارس/آذار ٢٠٠٤. وكان أي خبر ينشر على جميع صحف العالم عن قائد كتائب شهداء الأقصى، أيمن أبو عيطة، أو عن مؤسس حزب الله الفنزويلي، تيودورو دانوت، أو عن "رجل الزرقاوي في أسبانيا" أبو سفيان، أو عن ابن آوى إليتش راميريز، أو عن تشينو كارياس العضو في مجموعة "توباماروس"، أو عن ارتورو كوبياس عضو منظمة إيتا الانفصالية، أو عن القائد إدواردو روزا، من بين الكثيرين، يصل تلقائيا إلى بريدي الإلكتروني. الآخرون، أي المستترون، أولئك الذين ليسوا إرهابيين مشهورين أو غير المدرجين في قائمات وكالات الاستخبارات، لم يظهروا أبداً على صفحة جوجل. لكن في تلك الجُمعة ١٧ أبريل/نيسان نشرت مئات المقالات على الصحف الدولية حول إدواردو روزا، وتنبيهات جوجل فاضت بريد الإلكتروني.

لم أصدق. إلا أن صور أخي المسلم، مرشوش بالرصاص صباح ذلك اليوم في أحد فنادق سانتا كروز (بوليفيا)، كانت بليغة للغاية. وفقا لعناوين الصحف الدولية، روزا وعدة رفقاء من الفصيلة التي كان يتزعمها وقعوا ضحية نيران الشرطة البوليفية خلال عملية عنيفة لمكافحة الإرهاب هدفت إلى إجهاض خطة اغتيال كان يدبر لها أخي، على حد قولهم. حسب تلك العناوين، كانت الخلية بقيادة ادواردو روزا تخطط لاغتيال الرئيس البوليفي ايفو موراليس، وتحويل ولاية سانتا كروز إلى بلاد

الباسك الجديدة، أو إلى كوسوفو الجديدة، حرة ومستقلة عن الدولة البوليفية، وذلك باستخدام تقنيات حرب العصابات التي تعلمها روزا في حرب البلقان أولاً، وفي رحلاته إلى العراق بعد ذلك.

لم يكن لا الأول ولا الأخير من الرفاق الذين تعرفت عليهم خلال توغلي في شبكات الإرهاب الدولي وكانوا قد لقوا حتفهم بوابل من الرصاص خلال هذا التحقيق. وقبل روزا، كان ستة من زملائي قد لقوا حتفهم بالرصاص في هذا العالم الدموي والعنيف. ولحقهم آخرون. ولكن قضية روزا كانت مختلفة. وفقا لتلك العناوين، كان رفيقي يتزعم خلية إرهابية خططت لاغتيال رئيس الدولة، لذلك كان من الواضح أن أجهزة الاستخبارات البوليفية أولاً واستخبارات بلدان أخرى ثانيةً ستبدأ على الفور بتحليل الآثار التي تركها روزا. وبالطبع أن تلك المعلومات ستقودهم إلى كارلوس، وبالتالي إليّ.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الحزمة التي أرسالتها ذلك الصباح إلى أخت القائد، بسانتا كروز، كانت على وشك الوصول إلى بوليفيا. يوم ٢٥ ابريل/نيسان على وجه التحديد، وهو ما أكدته لي سيلفيا لاحقا. مما قد يصوب عليّ أنظار محققي الشرطة والصحفيين. في واقع الأمر، فإن اسمي العربي قد ذُكر في العديد من وسائل الإعلام البوليفية يوم وفاة روزا. وعثر زملائي الصحفيون، أثناء بحثهم عن معرفة المزيد عن زعيم المجموعة الإرهابية التي خططت، على حد قولهم لاغتيال ايفو موراليس، على آخر مقابلة أجريت مع إدواردو روزا قبل وفاته... تلك المقابلة أجريتها معه أنا شخصيا. وفي أقل من ثمانية وأربعين ساعة قد أصبح هدفا لزملائي اللاتينيين، حتى أنهم أجروا معي عدة مقابلات سرية نشرت علي وسائل إعلام وطنية مختلفة. دافعت في تلك المقابلات، مرة تلوى الأخرى، عن مذهب القائد روزا، وعن براءة القائد اليتش راميريز من التخطيط المزعوم لاغتيال ايفو موراليس... وهذا ما كان منتظراً مني أن أفعل. بالطبع، كل هذا كان يعزز هويتي العربية في الأوساط الإرهابية.

لكن وفاة زعيم الجماعة الإسلامية في المجر، الذي كان يحتفظ به كارلوس لإلقاء الضربة القاضية، والذي كان يخطط معه لعمليات في المستقبل، شكلت سابقة في عملية توغلي. منذ ذلك الحين، تحسنت علاقاتي بأعضاء في حركة ايتا، وحزب الله، وحماس، والجهاد الإسلامي، والقوات المسلحة الثورية الكولومبية، وجيش توباماروس الأروغوايي، وجيش التحرير الوطني الكولومبي، وكتائب شهداء الأقصى، وما إلى ذلك. إلا أنني الآن صرت لا أتعرض لخطر اكتشاف هويتي كصحفي متسلل في تلك المجموعات فحسب، بل ولخطر الموت رميا بالرصاص أيضا، مثلما حدث لرفاقي، إذا لم تميّز قوات الأمن بيني وبين إرهابي حقيقي. ولا مبالغة في ذلك.

"بالمصادفة"، بعد شهر من وفاة روزا، السيارة التي كنت أقودها في كاراكاس طارت في الفضاء. بالفعل، في يناير/كانون الثاني زُرعت قنبلة في أسفلها، إلا أنها لم تنفجر في تلك المرة. لكن في المحاولة الثانية، كانت سيارتي القديمة من طراز سيات ايبيزا ١٥٠٠ التي أتيت بها من أسبانيا والشاهدة على الكثير من الاجتماعات السرية مع أعضاء من الجماعات المسلحة الكولومبية، أو الباسكية أو

الفنزويلية في مختلف مدن البلاد، قد التهمتها ألسنة النار... ولحسن الحظ لم يصب أحد. ما زلت اليوم لا أعرف ما إذا كان ذلك الاعتداء من فعل جار "لا حول له ولا قوة"، أو جماعة مسلحة أخرى، أو من جهاز مخابرات معين.

كان اسم محمد عبد الله مسجلا بين قائمة الأهداف لكل تلك الأجهزة. ذلك الرجل الذي شوهد في فلسطين ولبنان وفنزويلا ومصر وسوريا وكوبا والأردن والمغرب وتونس وموريتانيا، وبمناطق أوروبية، بعد ١١ مارس/آذار ٢٠٠٤، على صلة وثيقة بقيادي منظمات إرهابية معروفة...

التمهيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. أهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ. الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ.

سورة الفاتحة (القرآن الكريم)

لسانك حصانك، إن صنْته صانك، و إن خنْته خانك.

(مثل عربي)

محمد، الفلسطيني

اسمي محمد علي عبد الله توفار، معروف بأبي أيمن الفلسطيني. أنا "غوتشي". ولدت في ايخيديو، بإقليم ميريدا، في "الفنزويلا السعودية" التي ينحدر منها كارلوس اندريس بيريز. غير أن أمي وأجدادي من فلسطين. وكما كان قد حدث لآلاف الفلسطينيين، فرتْ عائلتي من قوات الاحتلال الإسرائيلي الصهيوني، تاركةً وراءها في قرية صغيرة قريبة من جنين، بيتا وأراض زراعية وأشجار الزيتون المروية بدماء الشهداء. ورغم ذلك فإن عائلتي لم تنسى أبداً ماضيها.

وصل جداي من أمي إلى فنزويلا الستينيات التي كان يحكمها الحزب الشيوعي والميليشيات، سابقين بذلك الهجرة الجماعية التي جلبها الازدهار النفطي في السبعينيات وتأسيس شركة نفط فنزويلا (PDVSA). وفي هذا السياق، تعرفا على عائلة والدي، الشيوعي والملحد. غير أنه اعتنق في آخر المطاف الإسلام حتى أن يتزوج من والدتي.

قبل أن يعرف كلمة للنبي محمد (ص)، كان والدي من أتباع الماركسية وعضوا في الميليشيا الفنزويلية، يحارب قوات التحالف الديمقراطي التابعة للجمهورية الرابعة تحت رئاسة بيتانكور، ومعه وزير الداخلية آنذاك، والرئيس الذي تلاه، كارلوس اندريس بيريز. عُرفت تلك الحقبة بأيام الرصاص والغابات. شارك أبي في مناوشات مع ذاك المحارب الأسطوري دوغلاس برافو، أو على الأقل هكذا

كان يحكي لي في الطفولة... شاء القدر أن أصبح أنا، عدة سنوات بعد ذلك، صديقاً ومتعاوناً مع هذا الأخير، في كاراكاس التشافية بالقرن الحادي والعشرين. ومن هنا علاقتي بميليشيات أمريكا اللاتينية.

وقع والدي في حب أمي لأول وهلة. وترك السلاح ليعانق القرآن الكريم، لأن المسلم الطيّب ليس له مكان لمعانقة الأمرين على حد سواء، أو هكذا ما كنت اعتقده. على الرغم من أنه لم يكن من السهل إقناع جدي حتى أن يرضى بزواجهما. وهكذا كان مجيئي إلى هذا العالم.

بيد أنني لم أتعرف على والدتي أبدا. قضيت عليها عند الولادة. تُوفيت في النفاس، وأظن أن والدي لم يغفر لي أبداً. من هنا كان سلوكي السيئ والمشاكس في الطفولة.

عرفتُ والدتي من خلال ذكريات جدي الفلسطيني فقط، الذي كان مؤيدا دون شروط لياسر عرفات، وواحدا من الناجين بعد المقاومة في جنين ونابلس. كان يتحدث عن والدتي دائما وعن أرضنا، فلسطين، المحتلة والمنهوبة من طرف الإسرائيليين سنة ١٩٤٨، مع الشعور بالإحباط والحنين إليها. كان جدي، وسين الأنيق، هو الذي علمني الإسلام في الطفولة، وهو من أصر على أن أتعلم لغة القرآن الكريم. بالرغم من أنني نسيت بعد وفاته لسنوات عديدة كل ما علمني إياه... وكذا لغة القرآن. ومن هنا يأتي عدم اتقاني للغة العربية.

في أواخر السبعينيات، حل لويس هيريرا كامبينس، على أيدي الكاثوليك المحافظين (COPEI)، محل كارلوس اندريس بيريز في رئاسة البلاد، بينما كان يبحث عن "الأموال" التي اختفت من خزينة الدولة، والتي زادت من حدة فقر الشعب الفنزويلي. ثم تلاشت أحلام اليسار الفنزويلي لمدة ثلاثين عاما، مما أجبر رفاق والدي على البقاء في الميليشيا السرية إلى حد وصول هوغو تشافيز إلى الحكم. لذلك قررت عائلتي، مثلها مثل عائلات شيوعية أخرى، مغادرة فنزويلا قبل سنة **١٩٧٩** والاستقرار باسبانيا حيث درست وعشت لمدة عشرين عاما تقريباً. ومن هنا اكتسبت لغتي الأسبانية التي لم تكاد تظهر عليها علامات اللهجة اللاتينية.

كنت آنذاك طالبا متمردا. أعاني من صراع نفسي حاد بين الإرث الشيوعي الذي تركه لي والدي والتعليم الإسلامي الذي ورثته عن أجدادي. وككل مسلم صالح، وككل شيوعي طيب، كنت أحس منذ صغري بالواجب تجاه الآخرين. لذلك، في سن ١٨ سنة فقط بدأت العمل كمتطوع في منظمات إنسانية مختلفة بأفريقيا والشرق الأوسط. ومن هنا تأتي صلاتي المفيدة للجهاد في البلدان العربية.

عندما كنت أعمل كمتطوع بمركز علاج وتأهيل ضحايا التعذيب بجنين الفلسطينية، تحت إدارة صديقي الجليل الدكتور محمود سحويل من رام الله، تعرفت على زوجتي الأولى: دلال مجحد س.، أجمل أو أكفر امرأة في العالم العربي كله. وتكررت معنا قصة والديّ. وقعنا في حب من أول وهلة. إلا

أن والدها، وهو عضو ناشط في حركة حماس، لم يرض بعلاقتنا. وخاصةً بعد معرفة سيرتي الشيوعية، وعلاقتي العائلية بفتح. لذا كانت علاقتنا سرية. ووجيزة.

في يوم ٩ مارس/آذار ٢٠٠٤، كانت زوجتي الحبيبة، حامِلا بمن كان سيصبح أول أولادنا، في مدينة جنين خلال توغل معتاد لإحدى الدوريات أللإسرائيلية بالأراضي الفلسطينية. خلال المواجهة مع المقاومة، أتت رصاصة يهودية ضائعة من نافذة منزلنا لتقتل زوجتي وابني، أيمن، ولتقتل معهما أحلامي المستقبلية. من هنا تأتي رغبتي في أن أصبح مجاهدا للقتال في أي بقعة من العالم، ضد الصهاينة وحلفائهم الأمريكيين والأوروبيين، حتى تحقيق الاستشهاد...

تركت العمل في مجال التعاون، وتشددت في تكويني الإسلامي، ثم تلقيت تدريبا شبه عسكري في فنزويلا. توصلت إلى أنّ التضامن لا يحمي الأبرياء من رصاصات الامبرياليين. رصاصات أخرى، من عيار أكبر، هي التي يمكنها فقط القيام بذلك... ومنذ ذلك الحين أصبحت نيتي الحياة والموت في سبيل الجهاد، وقتل أكبر عدد ممكن من الكفار...

من الواضح أن كل ما قرأته حتى الآن تقريباً مزيّف. ومع ذلك، فإن هذه كانت الهوية الوهمية التي عشتها في السنوات الست الأخيرة خلال تسللي في منظمات إرهابية دولية، منذ ١٢مارس/آذار ٢٠٠٤.

الجزء الأول

٢٠٠٤ م. / ١٤٢٥ هـ.

الفصل الأول

وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ

سورة هود (القرآن الكريم ١١، ١١٤)

الإنسان عدو ما يجهل.

(مثل عربي)

السلام عليكم

-يا سالاس، لا تقل أمورا سخيفة! كيف تقول إنك تريد التوغل في صفوف الإرهاب الإسلامي؟ ولكن، هل أنت غبي أو تعتقد نفسك سوبرمان؟ أو الأمران على حد سواء؟

كان المفتش دلغادو يتحدث دائما بطريقة بليغة جدا عندما أقترح عليه مخططاتي، ومن العادة أنه يتأثر بالصدمة كل مرة. قد سبق وأن عمل لي معروفا عندما قدم كتابي "يوميات حليق الرأس"، مع استيبان ايبارا[3]، وكنت أجده آذانا صاغية كلما احتجت إلى نصيحته. وعلى الرغم من أنني قطعت علاقتي به قبل أكثر من سنة لأسباب لا صلة لها بما يهمنا، عندما لجئت إليه مرة ثانية استقبلني بأبواب مفتوحة. لم أكن أعرف شيئا عن الإرهاب، ولا حتى عن الإرهاب الإسلامي، لذلك طلبت منه المساعدة لبدء التحقيق. بالرغم من أنه في ذلك اليوم من شهر مارس/آذار ٢٠٠٤، وبعد أن بدأت وسائل الإعلام الحديث عن تورط الإسلاميين في أحداث ١١-م، لم يكن رد فعله متوقعا.

-أكيد أنك مجنون. أو في حالة سكر. أو الأمران على حد سواء. ولكن، هل رأيت نفسك؟ أخبرني كيف ستتظاهر أنت بأنك إرهابي عربي؟

-حسنا... حسنا... أنا...، إن سبق وأن تمكنت من التسلل في عصابات حليقي الرؤوس وفي المافيا، لا أرى ما يجعله المرة أكثر صعوبة هذه المرة- حاولت أن أرد عليه. وفشلت في هدفي طبعاً.

---

[3] رئيس الحركة ضد العنصرية.

-إنك لا تدري ما تتفوه به. ولكن، إلى أين تنوي الذهاب بهيئتك هذه كالقواد المتكبر؟ كيف ستتظاهر أنت بأنك مسلم متطرف؟ أتريد أن يقتلوك؟

-حسناً، يمكنني أن أترك اللحية، وأن أغير ملابسي... لا أدري...

-لا تدري، بالطبع أنك لا تدري. ولكنك تبدو وكأنك ندفة ثلج. كيف يمكنك أن تتظاهر بأنك عربي؟

-أستطيع الذهاب للاستلقاء تحت أشعة الشمس... وهناك مواد تعطي البشرة سمرةً، أو أي مساحيق لاسمرار البشرة... لا أدري.

-أجل، أعلم أنك لا تدري. ليست لديك أي فكرة. ولكن، هل تعرف شيئا عن الإسلام؟ هل تعرف شيئا عن القاعدة؟

-بإمكاني أن أتعلم.

-وهل ستتعلم اللغة العربية أيضاً؟ يا ذكي، لأنك حقاً ذكي.

-أعاهدك بأنني على استعداد للقيام بكل ما هو ضروري. وإذا تطلب الأمر تعلم اللغة العربية، فإنني سأتعلمها...

-يا لحماقتك! لن تتعلم اللغة العربية أبداً. وبقضيبك...؟

-لا، يا رجل، سأتعلمها من خلال الدراسة. لذلك هناك كلية، ودورات دراسية...

-لا، يا غبي! أقصد ذكرك، قضيبك. هل ستقطعه؟

هنا وقعت في فخه... بقيت مفتوح الفاه من شدة التعجب، ولم استطعت إلا أن أكرر...

-قطعه؟

-أجل، قطعه! المسلمين، مثلهم مثل اليهود، يختنون! هل أنت يهودي؟

-لا طبعاً.

-هل أنت مختون؟

-كلا.

أعترف بأن حجج المفتش كانت مقنعة، لكنني أظن أنّه كان يبالغ في مسألة الختان. لم تكن نيتي إظهار قضيبي في المساجد حيثما ذهبت، ولذلك اعتبرت تعليق المفتش دلغادو كلاما خشنا أكثر من أن يكون عائقا لعملية التسلل...

-يبدو أنك مستعد للتخلي عن الكحول، والدخان... وما هو أصعب من كل ذلك، هل ستتخلى عن أكل لحم الخنزير ومشتقاته...؟

بعد سنة من التعايش مع تجار المحرمات الروسيين والرومانيين واللاتينيين والأفارقة، أعترف بأنني قد اعتدت على حمل كأس من الفودكا في يد وسيجارة في يد أخرى في أي ساعة من النهار. "سيجارة بعد الأخرى، يشعل الثانية بما تبقى من الأولى، وكأس فودكا في منتصف الصباح يشهدون على اعترافه"، كتب ذلك م. بامبون وس. باريوكانال، في صحيفة "كي" (***Qué***) بعد مقابلة أجرياها معي. في تلك الأيام كان الكحول والدخان، رغم أن ما أقوله قد لا تستسيغه الأذن، يساعداني في تخدير ذاكرتي بعد كل ما عشته بعصابات الاتجار بالنساء. لذلك، بدا لي أن الإقلاع عن التدخين وشراب الكحول أمر مستحيل. ولكن في نفس الوقت أدركت أن لا فائدة فيهما. كما وأن لا فائدة في تلك الحماقة التي قالها المفتش حول أكل لحم الخنزير، أو الختان. يكفي ألا يراني "الموروس" وأنا أدخن أو أشرب أو آكل... أو أتبول. ومن الواضح أنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئا لا عن الإسلام، ولا عن الإرهاب، ولكنني كنت على استعداد للتعلم.

كنت وقت أحداث ١١-م بالعاصمة مدريد، غير بعيد من شقة يملكها شقيق زوجته. من هنا عاينت المغنية اللبنانية-الكولومبية شاكيرا الهجوم الوحشي الذي هز أسبانيا. قبل ذلك بثلاثة أيام، في يوم ٨ مارس/آذار، قدمت كتابي "سنة تاجرت فيها بالنساء" (***El año que trafiqué con mujeres***) في جو من الجدل يسوده عدم الرحمة والعدالة. على الرغم من أنني سردت فيه عملية تسللي بالشبكات الدولية للاتجار بالفتيات والنساء لأغراض جنسية، ركزت وسائل الاعلام على ممارسة الدعارة من طرف الشهيرات، وخلال الأيام التي سبقت تقديم الكتاب والأيام التي تلته، لم تكن برامج جميع القنوات التلفزيونية تتحدث إلا عن هذا الموضوع.

بين ٨ و١١ من ذلك الشهر كنت أعتقد أنني قد صرت أكثر شخص يسعى في طلبه جميع الزملاء الصحافيين، بينما كان يتكرر السؤال نفس في كل المقابلات: "ما هو العمل المقبل لانطونيو سالاس؟". ولكن لم يكن لدي جواب. تركتني عملية التسلل في عصابات الاتجار بالنساء معتوها عاطفيا ونفسيا. وما زلت إلى حد الآن. لذلك تركت زملائي ببساطة يتكهنون حول عملي المقبل، والنتيجة كانت مثلها مثل التخمينات حول هويتي الحقيقية، هل سيكون حول الاتجار بالمخدرات، أم الاتجار بالأسلحة، أم الفساد السياسي، أم استغلال الأطفال في الدعارة...؟ هكذا استمرت الأسئلة طوال ثلاثة أيام. ثم جاء

بعدها الضجيج والصمت، الخوف والتضامن بين جميع المواطنين، الغضب وكذلك التصميم على السير إلى الأمام. سالت دموع غزيرة بعد الفوضى التي أحدثتها القنابل، ولكن حدثت معجزات كذلك...

في صباح يوم **١١-م** حدثت معجزات كثيرة بمدريد: تأخير بعض القطارات، انفجار قنبلتين بعد التوقيت المحدد لها، المسافرين الكسالى الذين فاتهم القطار... من بين تلك المعجزات ما يدهش، مثل التي حدثت مع سيباستيان البوركيركي، الذي نقل إلى قسم الاسعافات صباح ذلك اليوم بعد أن انفجر قطاره. أمضى أسبوعا كاملا تقريبا في حالة غيبوبة، إلا أن التحاليل التي اجريت له كشفت عن اصابته بسرطان الكلى، الذي قد يكون قاتلا لو لم يُكشف قبل فوات الأوان. يقول سيباستيان إنه لا يزال على قيد الحياة بفضل **١١-م**. ربما حتي أنا أستطيع قول نفس الشيء. بالنسبة لكل الأشخاص الذين، بطريقة أو بأخرى، مسهم القدر الإلهي يوم **١١-م**، لم تعد الحياة مثلما كانت عليه. تغيرت حياتنا مثلما حصل لمئات العائلات. أما أنا فقررت أن أساعد بالطريقة الوحيدة التي يمكنني القيام بها.

غادرت مدريد صباح ذلك اليوم، وأنا في حالة صدمة بسبب الأحداث وبفضل "معجزتي" الخاصة. ولكن كنت أعرف أنني لن أمضي وقتا طويلا منعزلا عن الكاميرا الخفية، كما سبق وأن قررت بعد الجحيم الذي عشته في مافيات الاتجار بالنساء. أجلت ما كنت أخطط له وهو الالتحاق بمستشفى للأمراض العقلية، ولا أبالغ في كلامي، إلى أجل غير مسمى بعد كل ما حدث في **١١-م**. بدلا من ذلك كانت قد بدأتْ، وصوت صفارات الانذار وصراخ لا يزالا يدق في أذنيّ، تنبض حياةُ "الفلسطيني"... على الرغم من أن الامر استغرق عدة أيام لتوجيه خطواتي نحو الإرهاب الإسلامي. أولا كانت النظار تتجه نحو منظمة "ايتا"، ومعها جاء الاندفاع. اتهمت حكومة الحزب الشعبي المنظمة الإرهابية بأنها وراء الهجوم، ولم أجدُ ما يخالف البيان الرسمي. بالتالي قد أضطر لتعلم اللغة الباسكية (ايوسكيرا)، وأنتقل إلى شقة في بيلباو أو سان سيباستيان، وأجدد اتصالاتي بمعارفي القديمة في اليسار المناهض، لكي أقترب من الباسكيين القوميين.

بالصدفة، بعد نشر كتابي السابق، اتصل بيّ خوان مانويل **كريسبو** من السجن الذي كان يقضي فيه عقوبته. كريسبو هو زعيم اليمين المتطرف بإقليم فالنسيا وموظف سابق في شركة "ليفانتينا للأمن"[4]. لم يكتب في السجن كتابه "ذكريات متطرف" (***Memorias de un ultra***) للسلسلة [5] Serie Confidencial فحسب، بل أنه تمكن في السجن أيضا من مدّ علاقة صداقة جيدة للغاية بأعضاء تاريخيين في منظمة "ايتا" مثل أوسولو سيستياغا أو ايدويا ريانيو، المعروفة بـــ"النمرة". لم أكن أدري بأي طريقة، ولكن كريسبو قد يساعدني في الاقتراب من المنظمة. كما استعدت أيضا الاتصال

---

[4] اطلع على كتابي "السنة تاجرت فيها بالنساء" (***El año que trafiqué con mujeres***) ص. ٢١ وما يليها.

[5] ذكريات متطرف: التاريخ السري لليمين الاسباني المتطرف (*Memorias de un ultra: la historia secreta de la extrema derecha española*. Temas de Hoy, 2006. Colección Serie Confidencial de Antonio (Salas.

بـــ"مدربي" القديم في كل الشؤون المتعلقة بالاتجار بالنساء: الوكيل خوان، الذي قد "ارتفع" في رتبته كجاسوس. على أي حال، لم يسمح لي الوقت ولا حتى بالتسجيل في دورات اللغة الباسكية في مدرسة اللغات بساحة سان بابلو، بمدينة بيلباو.

في يوم ١١ مارس نفسه اتصل بي صديقي **ديفيد مدريد،** عضو الشرطة الوطنية الذي ربما كان قد أنقذ حياتي عندما أخبرني بأن أحد الضباط الكبار قد بلّغ عني أعضاء في منظمة حليقي الرؤوس عندما كنت في عملية تسلل داخل حركة النازيين الجدد. بما أنه كان في عين مكان التفجيرات، مثل جميع زملائه في شرطة مدريد، وصف لي مشهدا مرعبا، وحدثني عن سيارة مهجورة قد تكون لها علاقة بالإرهابيين، وعن شريط كاسيت مكتوب عليه كلمات بالعربية، ولكن في ذلك الوقت كانت حكومة الحزب الشعبي تصر على أن حركة "ايتا" هي المدبرة، وأنا كنت أصدق البيان الرسمي. صدّقت تلك الأقوال لمدة يومين، بالظبط حتى ١٣ مارس/آذار ٢٠٠٤.

الفضيحة انفجرت قبل الانتخابات الوطنية. المزيد ثم المزيد من الأدلة كانت تشير إلى أن مدبري الهجوم كانوا إرهابيين عرب وليسوا باسكيين، لذلك قررت حينها أمرين: أنني لن أذهب إلى التصويت يوم ١٤ مارس/آذار نظرا لمحاولة استغلال أحداث ١١-م من طرف جميع الأحزاب السياسية. وأنني سأبدأ في ذلك اليوم بتدوين ذكرياتي اليومية في مساري نحو أحشاء الإرهاب الدولي. رحلة قمت بها وما معي إلا القليل من الأمتعة. مجرد كاميرا فيديو ونسخة من القرآن الكريم.

الفصل التاسع

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ،
الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ.

سورة الناس (القرآن الكريم ١١٤، ١-٦)

الرفيق قبْل الطريق والجار قبْل الدار

(مثل عربي)

"لدينا الحق في قتل الإسرائيليين..."

عندما ذهبت إلى مسجد M-٣٠ يوم ٢ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩، أول يوم جمعة منذ بداية العدوان على غزة فيما عرف باسم "عملية الرصاص المصبوب"، وجدت سيارة الشرطة عند الباب. لم أرى من قبل دوريات الشرطة تحرس المساجد بهذه الطريقة الفاضحة: على الرغم من أن مراقبة الشرطة كانت مستمرة، إلا أنها كانت تفعل ذلك بشكل سري عادة. غير أن تلك الجمعة، عكس العادة، أمرت أجهزة الأمن الأوروبية دوريات الشرطة بحراسة أهم المساجد الأوروبية في محاولة لمنع أعمال الشغب المحتملة نتيجة المذبحة التي تجري في فلسطين. كما كان متوقعا، دارت خطب كافة الأئمة في العالم تلك الجمعة حول ما كان يحدث في قطاع غزة. والإخوة المسلمون كنا ننظر إلى بعضنا البعض ونشد علي أسناننا وقبضاتنا لنكظم غضبنا. كان من السهل على أي منظمة إرهابية العثور على دعم ضد إسرائيل وحلفائها الغربيين في تلك الأيام.

الخامس من يناير/كانون الثاني تلقيت رسالة إلكترونية بعثها ادواردو روزا لتسعة أشخاص، أنا من بينهم. تضمنت الرسالة مقالا كتبه لموقعه الخاص، باللغة الاسبانية، معربا عن استنكاره للعدوان على غزة. كانت الرسالة الإلكترونية تحمل ايضاً فيروسا من فئة أحـــصنة طروادة، وهو برامج للتجسس كَشف عنه البرنامج المضاد للفيروسات المشغل بمقهى الانترنت حيث كنت أعمل صباح ذلك اليوم.

ومن بين المستقبلين الثمانية الآخرين للرسالة الإلكترونية ولبرامج التجسس وجدتُ آليخاندرو ميلغار وآليخاندرو براون. لم أسمع تلك الأسماء من قبل. إلا أنني بدأت أقرأها بشكل معتاد على الصحافة الدولية في

شهر أبريل/نيسان التالي. لم أكن على علم بالورطة التي أوقعني فيها روزا عندما اضاف عنوان بريدي الإلكتروني إلى تلك العناوين التسعة.

في الوقت نفسه، بفنزويلا، وطني الافتراضي، خرج آلاف الناس إلى الشوارع، مثلما حدث في بقية أنحاء العالم للتظاهر ضد العدوان الاسرائيلي على غزة، كما سبق وأن خرجوا سنة ٢٠٠٦ جراء القصف الإسرائيلي للبنان. في مظاهرة كبيرة بكاراكاس، لوّح زملائي في اللجنة لإعادة إليتش راميريز إلى وطنه لافتةً ضخمة عليها صورة لكارلوس ابن آوى تحيط بها الأعلام الفلسطينية. نفس اللافتة التي حملناها في مظاهرات وتجمعات أخرى لإعادة كارلوس إلى وطنه، والتي لا تزال منتشرة على ثكنة سان كارلوس إلى جانب معرض دائم عن حياة إليتش راميريز.

مرة أخرى، كما سبق وأن فعل خلال الحرب بين اسرائيل وحزب الله عام ٢٠٠٦، كان هوغو تشافيز أول رئيس في العالم يسحب، في ٦ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩، سفيره من تل أبيب ويطرد السفير الإسرائيلي في كاراكاس، وكان أول من انتقد بشدة المذبحة، محدثا مع ذلك أزمة دبلوماسية جديدة بين إسرائيل وفنزويلا، مما صار يشجع الإشاعات حول تحالفه مع الإرهابيين.

في **بيان رسمي** صدر في نفس اليوم الذي بدأ فيه القصف يمكننا قراءة، من بين أمور أخرى: "إن الحكومة البوليفارية تعبر عن تضامنها مع الشعب الفلسطيني وترفع صوتها إلى المجتمع الدولي لأن يبدأ حملة شاملة لرفض هذه الأعمال العنيفة والبشعة، التي تهدف إلى إبادة شعب بأكمله". من خلال هذا الموقف، أصبح تشافيز مرة أخرى بطلا للملايين من العرب في جميع أنحاء العالم.

شكرت حماس هوغو تشافيز علنا على عمله التضامني. ومن بيروت، حث الشيخ حسن نصر الله، زعيم حزب الله، جميع الحكومات الغربية على أن تحذو حذو الرئيس الفنزويلي وتطرد السفراء الإسرائيليين في بلادها. لكن لم يلب النداء إلا حفنة من القادة المتأثرين بالدراما الفلسطيني، مثل ايفو موراليس. فيما يخص "معلمي" إليتش راميريز، الذي يتميز بمكر الثعلب، كانت له قراءة مختلفة جدا فيما يخص قضية طرد السفير الإسرائيلي:

–كان ذلك القرار عظيما، ولكن من الناحية الاستراتيجية لم يكن هو الأفضل. وسأفسر لك ذلك... إذا كان بإمكان فنزويلا القيام بعلاقات دبلوماسية... لكان من الواجب عليها أن تفتح في حيفا ورام الله وغزة قنصليات... وتوسع القضية البوليفارية إلى أبعد من ذلك...

كما أشار ابن آوى، لكان من الأفضل، من الناحية التكتيكية، أن تتمتع فنزويلا بمحطات إستراتيجية، محمية بفضل الحصانة الدبلوماسية في الأراضي المحتلة. إنّه يعلم ذلك جيداً. سبق وأن تنقل طوال عقود من الزمن في جميع أنحاء العالم دون أن يلقى عليه القبض، وذلك بفضل الحماية التي وفرتها له اتصالاته برؤساء بلدان أفريقية، وآسيوية وأوروبية. تشافيز، على الرغم من ذلك، اختار الطريقة الشعبوية وجنى ثمارها. ومن بين تلك الثمار، موجة جديدة من الاتهامات الدولية تتهمه بالدفاع عن الإرهابيين. إلا أنني لم أصدقها هذه المرة.

وليس من باب المصادفة أن تجري ديما الخطيب في ٩ يناير/كانون الثاني، مقابلة لقناة الجزيرة مع وزير الخارجية الفنزويلي نيكولاس مادورو، مما أثار المزيد من العاطفة في العالم العربي نحو هوغو تشافيز. في ١٠ يناير، تظاهر الطلاب الايرانيون أمام السفارة الفنزويلية في طهران للتعبير عن شكرهم لتشافيز على موقفه من القضية. في اليوم التالي تظاهر آلاف الفلسطينيين برام الله وجنين وبيت لحم، شاهرين صور لتشافيز، ومطالبين بأن يصبح الرئيس الجديد لفلسطين. نفس الشيء حدث يوما بعدها في بيروت، حيث أنه تم تدشين مطعم في وسط العاصمة أطلق عليه اسم "هوغو تشافيز". كما سميت احدى شوارع البيرة، في شمال لبنان، باسم الرئيس الفنزويلي.

كانت حماسة المسلمين والعرب تجاه تشافيز تصل إلى حد أنه في ١٣ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩ اقترح وليد الطبطبائي، النائب في الحزب الاسلامي الكويتي، نقل مقر الجامعة العربية من القاهرة إلى كاراكاس. "الرئيس الفنزويلي هوغو تشافيز أثبت أنه أكثر عروبة من الكثير من العرب –قال الطبطبائي– عندما طرد السفير الاسرائيلي."

كما قد يتوقع القارئ، في مكالماتي مع اليتش راميريز خلال تلك الأسابيع كان الصراع في غزة واحدا من المواضيع الرئيسية. سمح لي ذلك بالتطلع بشكل أفضل على العقلية والمنطقية الباردة، الجليدية، القاتلة، لكارلوس ابن آوى. فيما يلي مقتطف من احدى مكالماتنا، دون حذف ولا إضافات[6]. كما سجلها نظامي الخاص للتسجيل:

–هل هناك قنصلية لإسرائيل؟ –سألني ابن آوى.

–نعم، هناك قنصلية في سانتا كروز... –كذبت عليه أنا.

–قد تكون فكرة جيدة لو قمنا بمظاهرة هناك، دون عنف، دون أي شكل من أشكال العنف...

–نعم، ولكنه من الصعب في بعض الأحيان السيطرة على الحشود الغاضبة...

–لكن يجب ألا نسمح بذلك، هل تعرف لماذا؟ لأن ذلك في مصلحة الصهاينة. على سبيل المثال هنا، في هذا اليوم، كانت (غير مفهوم) جماعة الإخوان المسلمين، الذين نظموا بجدية... لمنع الاستفزازيين الأغبياء أو متعاطي المخدرات من الازعاج هناك. للقيام بأعمال استفزازية، أو لرمي الحجارة واشياء من هذا القبيل.

–بالطبع...

–علينا ألا نخلط بين الأمور، يا أخي. لكل مقام مقال ولكل حدث حديث، هل تفهم قصدي؟

–تماما.

[6] مكالمة بين اليتش راميريز وأنطونيو سالاس، في ١٠ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩

–مظاهرة من هذا النوع يقوم بها المواطنون، للتنديد والدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني، ولاستنكار المجازر والانتهاكات الفاضحة للقانون الدولي، لا يمكن أن تحقق هدفها المنشود لو شرع المتاظهرون في تحطيم نوافذ المتاجر وحرق السيارات والقيام بأعمال شغب من هذا القبيل... ليست هناك أي حجة لفعل ذلك. وبالخصوص، أنظر، يجب تجنب... لقد تحدثتُ مع أشخاص عبر الهاتف... تجنب أي نوع من أنواع العدوان على المعابد اليهودية أو ما يماثلها من الأماكن. ينبغي أن نحترم أماكن العبادة. الأعمال الوحشية والمجازر الصهيونية ضد الناس والعدوان على المساجد ليست عذرا لنحذو حذوهم. لدينا الحق في قتل الإسرائيليين لأن ليس هناك مدنيون في إسرائيل، في إسرائيل كلهم ينتمون إلى الجيش. ولكن يجب ألا نهاجم المعابد. ما لم يتم استغلالها، كما حدث في اسطنبول، عندما استغل الموساد الإسرائيلي هذين المعبدين اليهوديين. كانا مقرين للموساد، هل تدرك الامر؟ ولكنها حالة استثنائية. ليس لدينا الحق في مهاجمة أماكن العبادة...

–هل استخدم الموساد المعابد اليهودية؟ – سألته مندهشا.

–بطبيعة الحال، في تركيا! لماذا شُن هجوم على المعابد اليهودية في اسطنبول قبل بضع سنوات؟ هل تذكر؟

–لا، لا أذكر...

–حدث ذلك في ٢٠٠٦، في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٦. هاجم رفيقان... تركيان... بسيارة مفخخة وانفجرا... وأحدثا مذبحة بين رجال الموساد...

وفقا لنمطه الفكري، وبالنظر إلى أنه يجب على جميع الإسرائيليين أداء الخدمة العسكرية الإلزامية ومن ثم الانتقال إلى جيش الاحتياط، حيث أنه يمكن تعبئتهم في أي وقت، فإن لدينا "الحق في قتل الاسرائيليين". لا شك أن زملاءه الأتراك يشاطرونه نفس النمط الفكري. لأن تلك كانت أول مرة يذكر فيها اليتش راميريز الجبهة الإسلامية لمقاتلي الشرق الكبير (IBDA-C)[7]. بعد ذلك ببضعة أيام اتصلتُ بهم، مما جعلني أفتح خطا جديدا في مسار بحثي خلال ذلك التوغل، وهو ما يتطلب أيضا الوقت والمال والجهد. أضفتهم إلى عشرات الجماعات الإرهابية التي أنشئت معها اتصالات كل ما تعمقت رحلتي إلى أحشاء الإرهاب الدولي.

الهجمات التي أشار إليها إليتش وقعت في نوفمبر/تشرين الثاني، ولكن ليس في عام ٢٠٠٦، بل ثلاث سنوات قبلها. يوم ١٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٣ انفجرت سيارتان مفخختان في وقت متزامن، بجوار معبدين يهوديين باسطنبول، مما أدى إلى قتل ٣٠ شخصا، وجرح ٢٧٧ آخرين. وبعدها بخمسة أيام، انفجرت سيارتان أخريان بوسط اسطنبول، الأولى على بعد بضعة امتار من القنصلية البريطانية العامة والثانية أمام مكاتب البنك البريطاني اتش اس بي سي. (HSBC) في هذه المرة ٣٢ شخصا لقوا حتفهم، وأصيب بجروح ٤٥٠ آخرون.

تلقت وكالة أنباء الأناضول بعد الهجوم الأخير، كما حدث قبل خمسة أيام، اتصالا هاتفيا من متحدث مجهول، يدعي أنه يتحدث باسم تنظيم القاعدة والجماعة المحلية للجبهة الإسلامية لمقاتلي الشرق الكبير، والذي اعترف من جديد بتحمل مسؤولية الهجمات. "هذه الهجمات هي عمل مشترك بين الجبهة الإسلامية والقاعدة.

---

[7] بالتركية: *Islami Büyük Doğu Akıncıları Cephes.*

هجماتنا ضد الأهداف الماسونية ستظل قائمة. المسلمون ليسوا وحيدين"، قال ذلك الصوت المجهول. وفي هذه المرة تخلت السلطات التركية عن شكوكها.

تأسست الجبهة الإسلامية لمقاتلي الشرق الكبير في السبعينات على أيد الرجل الصوفي من أصل كردي عزت صالح أرديس، المعروف باسم القائد صالح ميرتسابيوغلو. ولد القائد صالح في ١٠ مايو/أيار سنة ١٩٥٠ بمدينة ارزينجان، وتعرّف على الشاعر والفيلسوف والكاتب فاضل بنسيب كيساكوريك عندما كان في ١٥ من عمره، وكان قد أثر عليه فكره بشكل عميق طوال كل حياته. ادخله كيساكوريك في الطارقة الصوفية النقشبندية، على الرغم من أن ميرتسابيوغلو أسس في السبعينيات منظمته الخاصة، في منتصف الطريق بين النظام العسكري والصوفي. حسب ما شرحه لي كارلوس ابن آوى في إحدى محادثاتنا الأسبوعية:[8]

–إنهم أناس طيبون... ليسوا طائفيين. إنهم من أهل السنة... عندما سمعت باسمهم لأول مرة، فكرت: "وأي سخافة هي هذه؟" ولكن لا. إنهم فرسان الشرق الأكبر، أي أنهم ينحدرون من مشرق الشمس، من الشرق. لأن الأتراك جاءوا مع الشمس، من المشرق، من الشرق الأكبر، هل تدرك ذلك؟ من أين أتت الشعوب التركية؟ من هناك، من صحراء غوبي، التي تعتبر الشرق الأكبر. ذلك هو مرجعهم. ولكن عندما نترجم ذلك إلى اللغة الإسبانية أو الإنجليزية، على المستوى الغربي، يبدو وكأنك تقول سخافة ماسونية، ولكن ليس لديه أي علاقة بذلك. إنهم ضد الماسونية، ويحاربون الماسونيين. لأن النظام الحاكم في تركيا مفروض من قبل ماسونية أهل السبت...

في التسعينيات، تطور فرسان الشرق الأكبر من الخطاب الفلسفي إلى العمل المباشر، حيث حُملوا مسئولية ما يقارب من مائة عمل عنف وهجمات إرهابية. ألقي القبض على ميرتسابيوغلو في عدة مرات، إلا أن في ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٨ كانت الاتهامات الموجهة إليه أشد خطورة. اتهم بأنه كان يتحمل قيادة الجبهة الإسلامية لمقاتلي الشرق الكبير، التي حاولت تفرض قانون الشريعة الإسلامية في البلاد وقلب نظام الحكم: في سنة ٢٠٠١ حكم عليه بالإعدام، لكنه خفف عليه في سنة ٢٠٠٤ إلى الحكم بالسجن مدى الحياة.

عانى ميرتسابيوغلو في السجن جميع أنواع التعذيب وسوء المعاملة، ووفقا لقوله، تعرض لعدة محاولات اغتيال. كل هذه المعاناة أدت إلى تعزيز شعبيته كبطل وشهيد، مقدس من قبل اتباعه إلى حد اعتباره شخصية رمزية تماثل رمزية تشي غيفارا لدى الغرب. ألف حوالي خمسين كتبا في الشعر، والدين، والفلسفة والتصوف، ولا يزال يشكل أسطورة من عقر زنزانته. إلى درجة أن العديد من أتباعه يعتبرونه المهدي المنتظر. ووفقا لكلام اليتش راميريز في احدى مكالماتنا الهاتفية، فإن ميرتسابيوغلو التقى ببن لادن شخصيا في اجتماع للجهاديين عقد بالسودان في الثمانينات، فاليتش يعلم جيدا ما يقول لأنه حضر ذلك الاجتماع شخصيا. علاوةً على ذلك، وفقاً لقول ابن آوى، فإن محاميَي راميريز التركييْن هما في نفس الوقت محاميا الدفاع عن ميرتسابيوغلو، وبالتالي فإن ارتباطهما وصداقتهما بقيا واضحين. ولهذا السبب أيضا، برر لي إليتش الهجوم على المعبدين اليهوديين في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٣.

---

[8] مكالمة بين اليتش راميريز وأنطونيو سالاس، في ٢١ مارس/آذار ٢٠٠٩

في الواقع، لم يستأنف اليتش راميريز الاتصالات مع أتباع ميرتسابيوغلو، ومعي، إلا منذ فترة قصير بعد وأن تم نقله إلى سجن باريس وحصوله من جديد على حق المكالمات الهاتفية. وفي هذا الصدد، سبق وأن قبل أن يسجل الأتراك تصريحات له حول الوضع في غزة، والسياسة التركية، إلخ، تم الكشف عنها في إحدى منشوراتهم: "باران". وفي يناير/كانون الثاني **٢٠٠٩**، في عددها **١٦٠**، خصصت مجلة باران صفحتها الرئيسية بأكملها لتغطية خبر إليتش راميريز ورسالته الأولى. ومن ذلك الحين، تخصص مجلة باران في كل شهرية لها تقريبا ركنا خاصا لأراء وتعليقات القائد اليتش راميريز. وظهر على الأقل تسجيلان لتصريحاته على شبكة الإنترنت. ولم يلبث مدير مجلة باران، فاضل ديغون، أن يتصل بيّ بتوصية من إليتش راميريز: استدعاني للسفر إلى اسطنبول...